

الخدوي اسماعيل

بحث في تاريخه لدى ذكرى وفاته في مارس سنة ١٩٢٤



ان الملوك اذا سخطوا عن عروشهم كانوا كالفقير في الغالب بالثلب وتكران الجليل
اذ ينزلونهم عن مراكر قوتهم وجبروتهم يرفع عنهم حجاب الملك المقدس الذي طالما

أحجبوا وراءه فتعظم سوانهم وتكش حناهم وتصنر جلالهم واعمالهم وتتغلب
السياسة على التاريخ فتختنق الحقيقة ومعحق الباطل النذل الحير الكثير وينشجع
العاملون على قلب الحقائق فيتلو الباطل ويصبح ميمناً

وما شأن الحديوي اسماعيل بشاذ عن هذه القاعدة . فقد ظل عرضة
للمطالب والتقد الباطل الى درجة لم يصب بها الا قليل من المنوك قبله او بعده اومع
ذلك مر زمن كان فيه عزيز قومه في بلاده والصديق المفضل على غيره من الامراء
في اوربا . مضى زمن كان النائلون منه اشد المعجبين به . مضى زمن تغنى فيه القوم
بمحاسن اسماعيل وعبقريته وما حصلوا عليه في عصره الذهبي

فهل من سبب لهذه التناقضات التي تواجه الباحث في تاريخ اسماعيل ؟ لماذا يواجه
الباحث شخصين يتباينان خلقاً ومزلة والمسافة بينهما كالتي بين القطبين ؟ لماذا
انقلب العالم الاوربي على اسماعيل بعد ان حرق له بحجور المدح والاعجاب
زمناً غير قصير ؟

لا يلبث الباحث ان يهتدي الى تفسير هذا التباين

في ٢٣ مارس سنة ١٨٧٦ صرح دزرائيلي رئيس حكومة إنجلترا في البرلمان
تصريحاً هاماً رداً على سؤال وجه اليه . اما السؤال فهو بهذا المعنى « هل لرئيس
الوزارة ان ينشر التقرير الذي قدمه انستر كيف الذي ارسلته الحكومة لفحص
حالة المالية المصرية بناء على طلب الحديوي اسماعيل » ؟ اما الجواب فهو : —

« ان الحكومة كانت تود نشر التقرير لولا ان الحديوي رجا حكومة جلالة
الملك ان لا تضيع محتويات التقرير نظراً الى حالة البلاد ولانه يعتبر مهمة كيف مسألة
شخصية محتمة . ومعنى هذا ان مالية البلاد اصبحت لا تتحمل اذاعة الحقيقة عنها
وفعلاً وقع هذا التصريح كالصاعقة في الدوائر المالية وعبثاً حاول الحديوي اصلاح

الحالة بعد ذلك حتى مع طلبه نشر التقرير رسمياً

يظهر لي ان هذا التصريح كان بمثابة انذار للناس وللدائنين خاصة بان الحديوي
قد افلس او كاد . وكان الدائنون الى تلك اللحظة يظنون ان الحديوي سيحل يقترض
بلا خوف ولا نهاية وان لمصر ثروة لا تفتى ودخلاً لا ينضب له معين . اما بعد هذا
التصريح فقد ظهر للعالم عجز الحديوي اسماعيل واصبح لا يمكنه ان يملأ بطون
الذين منوا انفسهم ان يثروا على حساب

يظهر من ذلك انه ما دام الحديوي يقترض ويولم الولاثم ويقوم بدفع الحساب

كله أو بعضه كان الناس يولونه عطفهم ويكثرون من مدحيه فلما ضيق عليه ولم تعد له قدرة على الاقتراض انفضوا من حوله وانهاروا عليه باللوم والتفريع . هذا تمليل التباين والمناقضات التي يلاحظها الباحث فيما كتبه الثرييون اذ يرى ان اسماعيل كان الى سنة ١٨٧٥ شخصاً مختلفاً باختلاف كلياً عن اسماعيل بعد هذا التاريخ

اذن فالموامل التي كانت سبباً في ائارة مدح اسماعيل او هجومه هي عوامل شخصية بحجة اساسها الماديات والمصالح ولا يمكن ان يستدل منها على مكان الحقيقة ولقد ادى به البحث والدرس فيما تجسس لدي من الحقائق عن اسماعيل الى نتيجة لا يخالفني في صحتها اقل شك

ذلك ان الحديوي اسماعيل كان اميراً عظيماً وكانت آماله ومطامعه واعماله عظيمة ايضاً سواء كان ذلك بالنسبة لنفسه واسرته او بالنسبة لمصر . فلقد قام بمشروعات كبيرة يجب ان تكون عنوان غر كل مصري وموضع اعجاب . وأما سوء خاتمة عهده فحسب ما اتخذته من الوسائل للوصول الى اغراضه فانه اراد في سنين قليلة ان ينفذ أعمالاً كانت حسن انجازها يتطلب سنين كثيرة ونفقات طائلة لا تقوى على تحملها الا حكومات اكثر من مصر ثروة واغزر مالا

وانه ايجدر بنا بادىء بدء ان نذكر ان سبب الكارثة المالية التي اودت بالحديوي في النهاية لم يكن مجرد انفاقه كما يدور في الازهان ويعتقده الكثيرون بل ان سببها كما جاء في تقرير المتر كيف سنة ١٨٧٦ « يمكن قصره على الشروط القادحة للاموال التي اقترضها الحديوي لحاجات ضرورية ولاسباب لم يكن له في احوال كبيرة سلطان عليها الا قليلاً »

حقاً ان اول ما يستلفت نظر الباحث في تاريخ اسماعيل هو شدة اقباله على القروض الاجنبية فلقد عمل من اول الامر على اجتذاب رؤوس الاموال الاجنبية الى مصر وذلك بدفع فوائد زائدة لاسحاب الاموال حتى اذا اجتمعت استخدمها في انجاز مشروعاته الهامة . والذي شجعه على طرق هذا الباب احوال اوروبا في ذلك الوقت - وقت استثمار رؤوس الاموال بالاصكتاب في شركات اسكك الحديدية التي كانت قد اُنشئت حديثاً وفي الشركات التجارية والمصارف والتقانات . وكان القوم في اوروبا يستثمرون اموالهم في المشروعات الاجنبية . وكانت مصر في ذلك الوقت تشرب من ضمن الاسواق المالية في العالم فكان طبيعياً ان يوجد القوم باموالهم وان يرحب الحديوي بها ايما رحيب

أما سبب الثقة بمصر فإنها كانت يومئذ نجحياً ورحماً طائلاً لسبب اختفاء القطن الأمريكي عن الأسواق لقيام الحرب الأهلية في أمريكا (١٨٦٢ - ١٨٦٥) أولاً .
ولسبب الغاء الرقيق فيها ثانياً والرقيق كان عماد المزارعين في الأقاليم الجنوبية .
فاتهمز اسماعيل هذه الفرصة وعمل على اعلاء شأن زراعة القطن في الدلتا . وكانت
زراعة القطن قد ادخلت في مصر في عهد محمد علي وانتشرت زراعته تدريجياً حتى
أصبحت مصر في آخر أيام سعيد تصدر مقدار ٥٧٠٠٠ باقة في كل باقة $\frac{1}{4}$ ه قنطار
غير أنه إلى اسماعيل يرجع الفضل في توسيع زراعة القطن حتى صار أهم محصولات
البلاد وبلغ مقدار ما تصدره مصر $\frac{1}{2}$ مليون قنطار في سنة ١٨٧٥ وسعر القنطار
٣٠٠ قرش إلى ٣٥٠ قرشاً

ولما رأى الاعيان الارباح العظيمة التي يمكن ان تعود من زراعته تشبهوا باميرهم
وزرعوا اراضيهم ثم تبهم صغار المزارعين والفلاحين فقبلوا على زراعته . وكانت
نتيجة هذا الانقلاب الزراعي ان فاضت البلاد بالثروة والرخاء الى درجة لم تعهد لها
مصر من زمن بعيد . فقد كثر طلب القطن من الخارج الاسباب التي ذكرناها وزاد
الطلب على المعروض فارتفعت الاسعار ارتفاعاً هائلاً وبلغ سعر القنطار ١٢ جنهاً
فزاد بذلك مقدار الذهب الوارد من لنكشير واقالم اوربا الصناعية الاخرى هذا
فضلاً عن الاموال التي دخلت مصر من طريق الأسواق المالية

ماذا تظن ؟ . بعد زراعي قبل كل شي غير صناعي زادت فيه الثروة زيادة فجائية
لا عهد للناس بها ؟ بالطبع عمّ الاسراف وبسطت الايدي كل البسط وانتشرت
المضاربة . وكان اسماعيل اول من اغتر بهذه الثروة الطائلة فاخذ ينفق بسخاه
وظهرت في اخلاقه صفة كانت الى ذلك الحين مخفية وهي صفة الاتفاق على الطريقة
الشرقية المعروفة فشيء القصور والمباني العامة وفرشها بالخمر الالوان واقام الولائم
الفاخرة وتشبه كبار الاغنياء والموظفين بسيدهم فازاحوا عنهم حجب العصور الوسطى
وظهروا راقتلين في حلق المدينة الغربية وخلعوا ملابسهم الشرقية واستبدلوا بالبذلة
الاسلامبولية وسكنوا قصوراً على الطراز الحديث وجلبوا اليها اثاثاً غريباً واشتروا
كثيراً من الرقيق الايض وطافوا في شوارع المدينة والمتنزهات تغلمهم العربات وتشبهوا
بملكهم فاقتضوا الاموال من الاجانب

ولكن سرعان ما انقضى هذا العصر الذهبي فقد انتهت الحرب الاهلية في
أمريكا وعم انسلام البلاد فعاد القطن الأمريكي الى الظهور في الأسواق وهبطت

أسعار القطن المصري هبوطاً سريعاً ولم يحسن البلاد في النهاية من عصر الرخاء الآ
زيادة الضرائب وكثرة الديون وانهاك الأراضي الزراعية . وكان الواجب على
الحكومة في تلك الحالة أن تدبر وتنقذ البلاد من ورطة مالية ويده العواقب وذلك
بأن تخفف الضرائب وتقتصد في المصروفات وتنتج عن اقتراض المال حتى يعود
التوازن المالي . ولكنها تفاقمت عن الحقيقة وخافت أن تظهر امام العالم بمظهر غير
لائق بسمعتها الاولى . فاستمرت تحيي الضرائب الفادحة من الاهالي الذين زادت
مطالبهم وكثرت نفقات معاشهم فقصدوا المرابين ليدفعوا ما عليهم من فوائد الديون
وضرائب الحكومة . وكانوا يقترضون المال من المرابين بربا فادح فاضطروا الى بيع
أراضيهم بثمان بخس وكثير منهم هجر أراضيهم لهرب من فداحة الضرائب التي عليها
ولكن اذا كان الفلاح قد أخذ على غرة بسبب جهله وعدم معرفته بحالة السوق
فلم يمدّ عدته لاستقبال الازمة الاقتصادية فان اسماعيل عرف حقيقة الحال وامكنه
أن يخلص نفسه من الورطة من غير ان تظهر عليه علامات الضعف المالي الذي
استولى عليه كما استولى على غيره . والفضل في خلاصه يرجع الى توفقه ذهنه فانه لما
رأى ضياع دولة القطن اقام بجانبها دولة السكر

وكانت قد جربت زراعة قصب السكر ونجحت في مزارع الامير مصطفى فاضل
في الوجه القبلي فعمل اسماعيل على ضم هذه المزارع اليه ولتسهيل الري حفر ترعة
موازية لل النيل من اسيوط الى يا واطلق عليها اسم ترعة الابراهيمية نسبة الى ابيه . ثم
ضم جميع الاراضي المجاورة للترعة الى الدائرة بالشراء القهري او العرفي . ولزيادة
العمران في تلك الجهات وتسهيلاً للمواصلات بدىء بمذ السكك الحديدية بين اسيوط
وبولاق الدكرور وما لبث ان ظهر اكبر مشروع صناعي قام به الحديوي وهو انشاء
١٩ مصنعاً للسكر . واصبحت مصر في عهده تصدر كميات وافرة من السكر وتنافس
في محصولها السكر الاجنبي حتى في اسواق اوربا . وبلغ ما تصدره سنوياً مليون
قنطار من السكر قيمته ٨٠٠٠٠٠٠ جنيه

ولقد قال كاتب اوروبي عن احياء زراعة السكر في مصر في عهد اسماعيل « ان
نمو هذا المشروع كان عجبياً ويندر ان يكون له نظير في تاريخ التجارة » غير ان ارباح
المشروع لم تكف لتحسين مركز الحديوي المالي فتشدت الحكومة في جباية
الضرائب وزادت فيها زيادة كبيرة فاضافت اليها ضرائب وعوائد ومكوماً مختلفة حتى
بلغ دخلها اكثر من ١١ مليون جنيه ومع ذلك لم يكف هذا المبلغ لادارة حكومة

البلاد وسد المطلوب من الخديوي ومن الحكومة

واضطرت الحكومة ان ترهق الفلاح بكل الطرق لتحصل على آخر قرش
ملكه لتدفع اقساط الدين التقيية التي كانت تطالب بها المصارف التي لا تؤخر ولا ترحم
ولكن رغم العسر المالي الذي وقع فيه الخديوي رأى انه يحسن به ان يواصل
الظهور بظهر المسرف كما يوم دائنيه باوربا مع ان الاسراف لم يكن من خلقه
وليس ادل على ذلك من دفته وشدته المتناهية في مراقبة حساب املاكه وثروته الخاصة
حفا عاش الخديوي عيشة الملوك وشيد القصور واقام الولايم والانراح واحتق
بملوك اوربا وامراتها ونبلائها احتفالا لم يعرف له نظير في العصور الحديثة ولكن
عذره في ذلك ان الطبيعة البشرية تقضي على المدين بان يظهر امام دائنيه ظهور
القادر الوائق من مركزه المالي . على ان هناك فائمة ضافية الذبول تضيء عن الاعمال
الهيبة التي قام بها اسماعيل مقابل ديونه العظيمة

قال اسماعيل « لكل انسان غرام بشيء خاص وغرامي بالموتة والحجارة »
ولا مرأه انه انجز في ست عشرة سنة من الاعمال العمومية ما لم تصل اليه همة اي
ملك آخر في الازمان الحديثة . وان ما اقامة لويس الرابع عشر في باريس ليضاءل
امام ما احدثه اسماعيل في القاهرة والاسكندرية . سر اينما شئت في القاهرة فلا بد
ان يقع نظرك على قصر او حديقة او ميدان او متزه او مدرسة او عمال او شارع
او حي او ضاحية باكلها اشأها اسماعيل . وان فيا جد في القاهرة من التفيرات
لشاهد عدل على ما كان له من الذوق السليم والهمة الغماء . فقد شملت عنايته
واصلاحاته جميع احياء القاهرة (ما عدا العريقة في القدم)

وكان من رأي اسماعيل ان يتجز كل الاصلاح والتحسين باسرع ما يمكن فتسابق
مع الوقت . كل ذلك ليظهر امام الملوك والامراء والعطاء الذين دعاهم لحضور
فتح قناة السويس بظهر الملك العظيم ولتضارع القاهرة باريس في جلالها وتذسيقها
فتكون عاصمة البلاد مقرا مناسباً لعظمة ملكها . وعلى ذلك بدى العمل بهمة زائدة
وتمذر السير في الطرق لكثرة مهات البناء كما ذكر بعض السياح في ذلك الوقت . وفي
سنتين قليلة تغيرت معالم القاهرة واصبح القادم اليها لا يكاد يصدق نظره لفرط دهشته
مما يراه من التغيير كما هو امام بيان شيدها مصباح علاء الدين في حكاية الف ليلة وليلة
وانا لو شئنا ان نذكر بالتفصيل كل ما اقامة الخديوي اسماعيل من المنافع
والاعمال العامة كالخطوط الحديدية والاسلاك التلغرافية وحفر الترع وبناء انارات

واصلاح الموائى وخاصة بيناء الاسكندرية والسويس لتضييق الوقت في حصرها . هذا فضلاً عما اتفق في سبيل التلميم وهو الخمر صفقة يسجلها التاريخ له وفي مشروع الحاكم المختلطة والامتيازات التي كتبها من الباب العالي وفي قناة السويس وتوسيع نفوذه وتوحيده في أفريقيا وانشائه دولة مترامية الاطراف كل هذه موضوعات يستغرق كل منها مقالة بأكملها



كل هذه المشروعات زادت في نفقات الحكومة ولم تكن ثروة مصر وحدها مع زيادة دخلها كافية لايبلاغ اسماعيل درجة الكمال التي كان يصبو اليها فبعد الالفروض ذات الفوائد والمصاريف الباهظة وزادت الحالة المالية خبالاً واشكلاً قاضطر في النهاية الى اصدار امر في ابريل سنة ١٨٧٦ بإيقاف دفع ربا الدينون مؤقتاً . ومنذ ذلك اليوم بدأت المشكلة المالية المصرية وبدأ معها التداخل الاوربي في شؤون الحكومة الداخلية اذ ترتب على ذلك تكوين لجنة صندوق الدين لتمثيل اصحاب الدينون من الاجانب . ويعتبر تكوين صندوق الدين اول تحديد فعلي لسلطة الحديوي اذ اصبحت اللجنة بمثابة حكومة مستقلة داخل الحكومة في مصر . وقد كان من رأي الحديوي اولاً انه ليس ثمة خطر من اجتماع مندوبي الدائنين ولكن ما لبثت الحالة ان تغيرت لما تدخلت الحكومات نفسها لصياغة مصالح الدائنين فاورجعت في مصر حالة سياسية ليس لها مثيل في تاريخ الحكومات المستقلة

وفي بوليه سنة ١٨٧٧ كتب مضمداً مختلراً الى حكومته يقول « ان الحكومة المصرية مواظبة على دفع اقساط الدين ودفع الجزية على الرغم من نفقات الحرب التي اشتبكت فيها مع تركيا ضد روسيا » . ولكنه ابدى تخوفاً من سوء العاقبة لان الدلاخين كما قال يتدون من تحمل عبء تمويل من الضرائب . وختم كلامه بقوله « ان الامة الانجليزية تتحمل تبعه كبرى ازاء هذه الحال » .

ولكن بينما كانت الحكومة الانجليزية تظهر استعدادها لارغام اصحاب الدينون على احتمال بعض التضحيات كانت الحكومة الفرنسية متصلة الى درجة عربية غير معقولة حتى اصبح اهتمامها بالمركز المالي في مصر اكثر من اهتمامها بالمركز السياسي فكان غرضها الوحيد صيانة اصحاب الدينون باية طريقة كانت من غير تبصر او اظهار اية عاطفة نحو اهل البلاد كما كانت تفعل الحكومة الانجليزية ولو ظاهراً . والقارىء للوثائق السياسية المتبادلة بين الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت وبين

تمثلها في مصر فتتولي عليه الدهشة لتمسك المائلة المالية من اذهان رجال السياسة الفرنسيين. ويظهر ان المسيو وادنجتون وزير خارجية فرنسا وهو من اصل انجليزي سكوتي قد نصح بكل مصالح فرنسا مقابل احتفاظه بالاتفاق مع انجلترا التي كانت ترغب في الضمان فرنسا اليها في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وبينما كان السبيل الوحيد لحل المشكلة المالية المصرية ومنع الحكومة الانجليزية من تحقيق امانها في هذه البلاد هو اشراك جميع الدول في البحث في المسألة رأى الوزير الفرنسي ان يأخذ من اعضاء المؤتمر عهداً بعدم المناقشة في المسألة المصرية ووافق بسمرق والمؤتمر على ذلك اعتقاداً بان هذا لا بد ان يؤدي الى وقوع الشحنة بين الدولتين يوماً ما والحقيقة ان مؤتمر الدول باوربا كان قد فقد كل اهتمام بالمسألة المصرية منذ ان سويت ازمة سنة ١٨٤٠. وعلى ذلك تفيدت فرنسا بلزوم السير مع انجلترا خطوة بخطوة. واذا ما اشترك اثنان في معالجة امر من الامور كان تفوق واحد منها أمراً لازماً لا بد منه وليس ادل على اي الدولتين كانت الغالبة من وضع السير وفرنس ولسون في وزارة المالية والمسيو ده بلتير في الاشغال

ولهذا مهدت فرنسا لنفسها طريق انتحارها السياسي في مصر وقضت على الجهود التي بذلتها حكومتها منذ بدء القرن التاسع عشر في سبيل المحافظة على حكومة وطنية في مصر مخالفة لفرنسا مستقلة بقدر الامكان عن تركيا. فعلت اكثر من اي دولة اخرى على اسقاط اسماعيل ولم تتردد نهائياً في الاتجاه الى الباب العالي لاصدار الامر بعزل اسماعيل صاحب الحق الوراثي الذي ورث محمد علي صديق فرنسا الكبير. وذهب اسماعيل في النهاية ضحية سلطان المال

غادر الحديوي البلاد بناء على امر الدول في آخر يونيه ١٨٧٩ وذهب الى ايطاليا حيث اعد له الملك همبرت الاول ملك ايطاليا قصر «لافاثورينا» قرب نابلي مقاماً. ويقال ان ملك ايطاليا قدم هذا الصنع الجميل مقابل اموال كان قد اقترضها والده فنكتور عمانويل الثاني من الحديوي ولم يعرفها. ولقد عاش الحديوي في مقامه الجديد عيشة راضية ساكنة. واخيراً سمح له بالمقام في القسطنطينية فغادر ايطاليا وعاش في قصر مركون من سنة ١٨٨٧ الى سنة ١٨٩٥ فكانت هذه المرحلة من حياته انكد أوقاته فقد ساطه السلطان عبد الحميد الثاني بالميون والجواسيس وحظر عليه الخروج من قصره ونالت عليه الاسقام فتأثرت حالته الصحية وقاضت روحه في ٣ مارس سنة ١٨٩٥ وعمره اذ ذاك خمس وستون سنة. ونقلت رفاته الى

حيث دفن في ١٣ مارس في مسجد الرفاعي باحتفال كان بالذات النهاية في المهابة والجلال وسبق اسم اسماعيل في التاريخ كأمير اتبعت له جميع الصفات والفرص التي كانت كفيلاً بأن تجعل حياته أعظم من الحياة التي عاشها لولا أنه كانت تعوزه صفة ضرورية هي الصبر . فقد كان متجلاً في الحكم على اخلاق الناس وفي اختيار أصفائه وفي عقد قروضه . ولما كان رجلاً تجول في خلد أنكار عظام ومشروعات ضخمة اضطرتة فله صبره إلى الإفراط في موارد واستعمال سلطته الفردية افراطاً خشي منه على سلامة ملكه وبلاديه

فلو كان حوله أصدقاء يخلصون له النصيح لزال الخطر ولكن اخلاق اسماعيل كانت تأتي ان يتداخل في شؤونه أي انسان لا لسبب سوى ان ارادته كانت تطلب على ارادة الجميع . وأنه ليخالنا الشك في ان يكون قد سمع باذنه كلمة حق عن حقيقة الحالة من أحد المقرين إليه إذ لم يكن ليجرؤ احد على ذلك

ومن دواعي الاسف ان الخديوي لم يحرص على الاستمرار في دعوة مجلس النواب الذي انشأه في سنة ١٨٦٦ ولو عقد المجلس باستمرار لطم النواب طرق العمل وخلصوا الخديوي ومصر من أي سوء يمكن ان يهدد سلامتها ولكنها لقله صبره لم يقو على احتمال وجود هيئة قد تحول دون تنفيذ مقاصده بالسرعة التي يريد

ولئن كانت غلطات اسماعيل القابل كثيرة فان حسنات اسماعيل الحلال اكثر وأبقى . فصر لا تنسى اسماعيل واصلاحاته والعالم سيذكر على الدوام خدماته للمدينة وللعلم وسوف يتحدث الناس جيلاً بعد جيل بشخصيته ذات القوة والعظمة والذكاء

وخلق بنا والبلاد قد اوشكت ان تم بناء هيكلي استقلالها المقدس ان تنقش اسم الخديوي اسماعيل بجانب اسم محمد علي الاكبر و ابراهيم الكبير اولئك الذين وضعوا اساس البناء واقاموه على صخرة صلبة من عزيمتهم وعزمات جيوشهم البواسل من المصريين الذين اضاءوا الطريق امامنا بريق سيوفهم وكتبوا بدعائمهم اول جملة في وثيقة الاستقلال التي ستحررها الامة قريباً ان شاء الله برآسة سعد العظيم والتي سينوجها اسم جلاله ملك البلاد فؤاد الاول ابن الخديوي اسماعيل

محمد رفعت

مدرس التاريخ بمدرسة المعلمين العليا